البـــــاب الخامس

الإدارة

بلغت النظم الإدارية في عهد السلطان برقوق درجة كبيرة من الإتقان والدقة، فكان عماد الحياة الإدارية في العاصمة مجموعة من كبار الموظفين يمثلون الإدارة المركزية، أما في الأقاليم فاعتمدت الحياة الإدارية على مجموعة من النواب والولاة يمثلون الإدارة المحلية، وبجانب هذا الجهاز الإدارى الضخم وجدت مجموعة من الدواوين الكبيرة لإدارة مرافق الدولة العديدة، ومن ثم تمثل الجهاز الإدارى العام فى النظم الثلاثة التالية:

أولا: الإدارة المركزية:

تمثلت الإدارة المركزية فى العاصمة فى: نيابة السلطنة، والأتابكية، والوزارة، وولاية القاهرة.

١- نيابة السلطنة:

النيابة أصلا وظيفة ابتدعها الأيوبيون، وذلك لكثرة تغيب السلطان صلاح الدين الأيوبى عن مصر، ولرغبته في أن ينوب عنه بها أثناء اشتغاله بالحروب الخارجية أحد رجال الدولة، فكان الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح نائب أبيه صلاح الدين بمصر مدة اشتغاله بفتح البلاد الشامية[١].

ويكاد يكون نائب السلطنة في مصر هو السلطان الثانى، لما يتمتع به من نفوذ كبير[٢]، فقد «كان يستخدم الجند، ويخرج الإقطاعات من غير مشاورة السلطان، وهو المتصرف المطلق في كلى أمر، فيراجع في الجيش والمال والبريد، وكل ذى وظيفة لا يتصرف إلا بأمره ولا يفصل أمرا معضلا إلا بمراجعته، وهو الذى

---

(١) السيوطى: حسن المحاضرة حـ٢ ص٢٢ .

(٢) Ven Berchem: Materiaux pour un corpus.
Inscription um Arabicarum De L'Egypte. P. 212.
Wiet: Op. cit. p. 396.

يستخدم الجند، ويرتب الوظائف»[١] كما كان يلقب بالنائب الكافل[٢]، وكافل الممالك الإسلامية[٣]، لأنه كان يكاتب من سائر نواب الممالك الشامية وغيرها فى مثل الأمور التى يكاتب فيها السلطان[٤].

ويمكن أن نتبين مدى أهمية نائب السلطنة في مصر إذ ذاك من التقسيم الذى وضعه الخالدى لأرباب الوظائف بحضرة السلطان من الأمراء المقدمين، إذ يضع الخالدى نائب السلطنة على رأس كبار الموظفين بالعاصمة[٥].

على أنه إذا كانت نيابة السلطنة قد ضعفت فى عهد الناصر محمد بن قلاوون ثم ألغيت مع الوزارة سنة ٧٢٧هـ[٦].

فقد حرص السلطان برقوق عند اعتلائه عرش مصر سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، أن يختار لهذه الوظيفة الأمير سُودُون الفخرى الذى كان يتمتع بثقة السلطان واحترامه[٧]، وخير دليل على ذلك أن السلطان برقوق بعد أن أقره في وظيفة النيابة صار «يقبل قوله ولا يرد أمره»[٨]، بل وصل الأمر بالسلطان برقوق إلى أنه لم يتجاهر بشيء من المنكرات إلا بعد موت سودون النائب[٩].

وكيفما كان الأمر فقد تمتع هذا النائب بسلطة واسعة، فكان يعين الأمراء وغيرهم في المناصب[١٠]، كما كان ينوب عن السلطان في استقبال كبار الشخصيات الوافدة على السلطنة في مصر من الخارج[١١]، كذلك كان يقوم

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢١٥.

(٢) Van Berchem Op. Cit. P. 212.

(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص١٦.

(٤) القلقشندى: نفس المصدر والجزء ص١٧، المقريزى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٥) الخالدى: المقصد الرفيع ورقة ١٢٤.

(٦) المقريزى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

(٧) ابن دقماق: الجوهر الثمين جـ٢ ورقة ١٨٠، ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٥١٧.

(٨) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٤٣٤.

(٩) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص١٥١.

(١٠) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٧٣٢.

(١١) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٠٦.

بعرض رجال الجيش المملوكي ويعين منهم من يختار للسفر إلى النيابات الأخرى التي تهددها الأخطار الخارجية[١].

ويكفي ما قرره المقريزي من أن النيابة في أيام الظاهر برقوق كانت تسير على القوانين المعهودة بها ولم يصبها الوهن أو الضعف[٢].

ويعتبر الأمير سودون آخر من تولى نيابة السلطنة في عهد برقوق ولم يل أحد هذه الوظيفة بعده حتى جاء السلطان فرج بن برقوق فأقام في وظيفة النيابة الأمير تمراز، ولكنه لم يقم في دار النيابة بالقلعة على ما هو المعهود، كذلك لم يتعد نفوذه نفوذ وظيفة حاجب الحجاب، ولم يتول النيابة أحد من بعد تمراز[٣]، وهذا النائب غير نائب آخر عرف بنائب الغيبة وهو الذي يقوم بعمل السلطان فقط إذا غاب السلطان عن البلاد في حرب خارجية أو خرج للصيد ونحو ذلك[٤]، وتتركز وظيفته في إقرار الأمن وإخماد الثوار وخلاص الحقوق وغير ذلك[٥].

ومن أشهر نواب الغيبة في القاهرة في دولة السلطان برقوق الأمير كَمَشْبُغَا الحموي أتابك العساكر، وكان السلطان برقوق قد عينه نائب الغيبة بمصر سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩٠م إلى أن يعود من الشام[٦]، وقد تمكن هذا النائب من إدارة الأمور بحزم وكفاءة عالية، ولا أدل على ذلك مما وصفه به ابن الصيرفي في قوله: «ومضت هذه السنة والقاهرة ومصر وأعمالهما قد دبرها ودبر أحوالها بالسياسة الأمير كمشبغا نائب الغيبة، وصار أحد في مدة حكمه ونيابته لا يقدر يتجاهر بشيء من المنكرات والمسكرات، ولا يحمل سلاحا ولا يقرب فاحشة ولا يأخذ رشوة ولا يظلم أحدا من الرعية، فحسنت سيرته وتضاعفت الأدعية له»[٧].

---

(١) ابن الصيرفي: نفس المصدر والجزء ص٣٢١.

(٢) المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢١٥.

(٣) المقريزي: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢١٥.

(٤) Demombynes: Op. Cit. p. L VI.

(٥) القلقشندي: صبح الأعشى جـ٤ ص١٧ - ١٨.

(٦) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثاني ص٤٤٦.

(٧) ابن الصيرفي: نزهة النفوس جـ١ ص٣٣٨.

٢- الأتابك:

ويلى نائب السلطنة الأتابك، ويعتبر نظام الدولة وزير ملكشاه بن إلب أرسلان السلجوقى أول من لقب بهذا اللقب، حين فوض إليه ملكشاه تدبير المملكة سنة ٤٦٥هـ[١]، ثم جاء لقب الأتابك إلى مصر مع صلاح الدين الأيوبى[٢]، وأول من شغل وظيفة أتابك العساكر في العصر الأيوبى هو عز الدين أيبك على عهد شَجَر الدُّرّ في سنة ٦٤٨هـ[٣]، وهكذا تحول هذا اللقب إلى لقب عسكرى فأصبح يطلق على القائد العام للجيش المملوكى.

ومن ثم غدا الأتابك بحكم منصبه صاحب النفوذ الكبير والكلمة العليا في الدولة، وقد اعتبره Van Berchem فى المرتبة التى تلى مرتبة نائب السلطنة[٤].

وكثيرا ما مهدت هذه الوظيفة لتولى السلطنة، كما فعل الأمير زين الدين كَتْبُغا المنصورى عندما استبد بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون فى سلطنته الأولى، حتى انتهى الأمر بالأتابك إلى إعلان نفسه سلطانا سنة ٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م[٥].

وربما أسندت إلى أتابك العساكر في بعض الأحيان الوصاية على سلطان قاصر، ومن ثم يصبح ألعوبة فى يد أتابك الجيش يتحكم فيه كيفما شاء، كما فعل الأمير برقوق عندما عهد إليه بالوصاية على السلطان حاجى بن شعبان سنة

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص١٨، الخالدى: المقصد الرفيع ورقة ١٣٤.

Ven Berchem: Op. Cit. P 290.

(٢) Ibid: P. 290.

(٣) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الأول ص٢٨٨.

(٤) Ibid: P. 290.

(٥) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الأول ص٣٨٦.

٧٨٣هـ/ ١٣٨١م، وغدا برقوق هو المسيطر على شئون الدولة حتى انتهى به الأمر إلى اعتلاء السلطنة سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م[١].

وكيفما كان الأمر فقد أصبح أتابك العساكر في الجيش المملوكى على عهد السلطان برقوق أهم أمير في السلطنة، وكانت مهامه أوسع كثيرا مما ينبئ به منصبه، ذلك أنه غدا فى جميع الأغراض نائبا للسلطان، ويكفى أن السلطان برقوق جعل أتابكه كمشبغا الحموى نائبا عنه بمصر سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م حين خرج إلى الشام لمحاربة الثائرين هناك[٢].

وفى مجلس الوصاية الذى شكله برقوق سنة ٨٠١هـ/ ١٤٠٠م للوصاية على أبنائه، كانت رئاسة هذا المجلس للأمير الكبير أَيْتَمُش البَجَاسى أتابك العساكر[٣].

٣- الوزارة والوزراء:

عرفت الدولة الإسلامية في فجر حياتها الوزارة بمعنى المعاونة، فكان لكل خليفة من يساعده في شئون الدولة، غير أن لقب الوزير لم يطلق على صاحب هذه الوظيفة إلا في أوائل الدولة العباسية، حيث أطلق هذا اللقب على أبى سلمة حفص بن سليمان الخلال وزير الخليفة السفاح، فكان يقال له: وزير آل محمد[٤].

وكانت الوزارة وقتئذ لها مَنْـزِلتها حيث كان يوكل للوزير كل شئون الدولة[٥].

هذا و لم تعرف الوزارة في مصر إلا فى عهد الإخشيديين، فعد صاحبها على رأس السلطة الإدارية فى الدولة المصرية[٦].

---

(١) ابن خلدون: العبر جـ٥ ص٤٧١ - ٤٧٢، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣٦.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٤٨٨ .

(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٩٣٦ - ٩٣٧.

(٤) ابن طباطبا: الفخرى ص١٣١.

(٥) ابن طباطبا: المصدر السابق ص١٣٣، ابن خلدون: المقدمة ص٢٣٨.

(٦) على إبراهيم: مصر في العصور الوسطى ص٣٥٤ .

ومن المعروف أن إنشاء وظيفة نائب السلطان في عهد الأيوبيين أضعف من أهمية الوزير، فتضاءل نفوذه عما كان عليه زمن العباسيين بالعراق أو الفاطميين بمصر[١]، كذلك لم يتمتع وزراء العصر المملوكى بالنفوذ المطلق لهذا السبب أيضًا.

وكيفما كان الأمر فقد «تلاشت الوزارة فى أيام الظاهر برقوق بما أحدثه من الديوان المفرد... وجعل مرجع هذا الديوان إلى الأستادار[٢]... وبذلك قوى جانب الأستادار وضعفت الوزارة»[٣].

كما أن وظيفة مشير الدولة[٤] أضعفت كذلك من نفوذ الوزراء في عهد السلطان برقوق، فكان من سلطة مشير الدولة وقتئذ أنه لا يسمح للوزير أن ينفرد بالتصرف فى شيء إلا بعد مراجعته[٥].

كذلك حد من نفوذ الوزير بالإضافة إلى ما سبق وجود مجموعة من الوظائف على رأس كل منها شخص يدعى الناظر، كناظر الخاص[٦]، وناظر الدولة الذى يشارك الوزير في الأمور العامة والشئون المالية، حتى إنه كان يقوم بتدبير أمور الدولة إذا غاب الوزير أو تعطلت الوزارة من وزير[٧].

على الرغم من ذلك فإن الوزارة فى عهد برقوق، بل والعهود التالية لم تفقد مكانتها نهائيا، بدليل ما ذكره المؤرخون المعاصرون لتلك الفترة عن منصب

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢٢٣، سعيد عاشور: العصر المماليكى في مصر والشام ص٣٥٥ - ٣٥٦.

(٢) الأستادار: هو الذى يتولى شئون مال السلطان قبضًا وصرفًا، ويتحدث في أمر بيوته، ويحكم في غلمانه، القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٢٠، جـ٥ ص٤٥٧.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢٢٣.

(٤) مشير الدولة: المشير هو الناصح الذى يؤخذ رأيه (حسن الباشا: الألقاب الإسلامية ص ٤٧١ وهو من ذوى السن من أكابر أمراء المئين وهم أمراء المشورة، وكان جلوسهم في دار العدل على بعد خمسة عشر ذراعا من يمنة السلطان ويسرته (القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٤٤) ٢٠٩.

(٥) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٣ ص٦٨٥، النجوم الزاهرة جـ١١ ص٢٠٩.

(٦) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢٢٣.

(٧) المقريزى: نفس المصدر والجزء ص٢٢٤.

الوزارة، حيث يذكر ابن شاهين أن «من انتصب لهذه الوظيفة لزمه النهوض بمهمات الدولة وأمور المملكة بأن يحمل أثقالها، ويزيح اختلالها، ويصلح أحوالها، ويحفظ رجالها، وينمى أموالها، ويستخدم الكفاة ويوليهم أعمالهم... فمن أخلص رفعه، ومن غدر عذله، ويعتنى بجهات الأموال وحراسة أسبابها... وضبط حسابها والعدل في جبايتها»[١].

ولذلك نجد أن السلطان برقوق حرص فى كثير من الأحيان على اختيار وزراء لهم مكانتهم، فقد رفع من شأن الوزارة حين اختار لها فى سنة ٧٨٥هـ الوزير الصاحب شمس الدين إبراهيم كاتب أرلان، وربما كان من أهم أسباب ترشيحه للوزارة أنه مارس الخدمة فى دواوين الأمراء، كما ولى نظر ديوان برقوق قبل أن يتسلطن، بحيث أصبحت له دُرْبَة كافية فى إدارة القضايا المالية[٢].

وتشير المصادر المعاصرة لهذه الفترة أن السلطان برقوق، فوض الوزارة إلى إبراهيم هذا فى وقت اضطربت فيه الأمور المالية للدولة وقل ما يتوصل للوزارة من الغلال وما يجبى من المال[٣]، حيث استأجر الأمراء النواحى بأجرة قليلة عجلوها[٤]، ولذلك كانت المهام الموكولة إليه عسيرة وشاقة، إذ كان عليه أن يضبط الأمور المالية للدولة وأن يكف أيدى الأمراء عن اتخاذهم النواحى واستغلالهم للبلاد على هذه الصورة، كما كان عليه أن يعيد مطابخ السكر على ما كانت عليه، ولكى يتم ذلك ويتمكن من مباشرة مهام منصبه «سأل السلطان فى أن لا يؤجر شيء من بلاد السلطان لأحد وأن تنفذ كلمته وأن لا يحمى أحد عليه فرسم له بذلك[٥]، ووضعه السلطان فى مستوى المسئولية ومنحه سلطة مطلقة حيث انفرد بمباشرة الأمور بنفسه بعيدا عن مشير الدولة الذى كان من مهامه

---

(١) ابن شاهين الظاهرى: زبدة كشف الممالك ص٩٣ - ٩٥.

(٢) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٣٨ .

(٣) ابن حجر: نفس المصدر والجزء والصفحة، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٦٠.

(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٥٦٩.

(٥) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٦٠ .

وقتئذ ألا ينفرد الوزير بالتصرف فى شىء إلا بعد مراجعته، وقد أشار إلى ذلك ابن الصيرفى بقوله: «وكان الأمير جركس الخليلى له التحدث فى الدولة فرفع يده من التحدث فيها»[١] وترتب على ذلك اتساع نفوذ الوزير فعظمت مكانته وهابه كبار الأمراء[٢]، وقد أجمعت المصادر المعاصرة له أن هذا الوزير تمكن ببراعته فى القضايا المالية من أن يملأ بيت المال بالأموال وأن يعطى أرباب الوظائف راتبهم من غير نقص، ومات والحاصل فى بيت المال مليون درهم من الفضة، ومن الغلال الذى ملأ به الأهراء السلطانية ثلاثمائة وستون ألف أردب، ومن الأغنام ستة وثلاثون ألف رأس، ومائة ألف طائر من الأوز والدجاج، ومن الزيت ألفا قنطار، ومن السكر كذلك[٣].

ولذا وصف المؤرخون وزارته بأن حالها صار على القاعدة القديمة والقوانين المحررة وأن السلطان كان مطيعا له فى كل ما يراه، ولذلك صارت يده فوق أيدى أهل الدولة وكبار الأمراء بها، وهابه الخاص والعام[٤].

ولم يحاول هذا الوزير أن يستغل منصبه لجمع المال لحسابه الخاص، بل كان يأخذ ما يكفى لمعيشته[٥].

وفى السلطنة الثانية لبرقوق سنة ٧٩٢هـ حدث تطور في وظيفة الوزارة، حين تولى الوزارة الأمير الوزير محمد بن لاَجين المعروف بابن الحُسَام، حيث استخدم جميع الوزراء المنفصلين قبل ولايته فى إدارة شئون الوزارة، فأسند نظر الدولة للوزير السابق شمس الدين المَقْسِي، كذلك أسند نظر البيوت واستيفاء الدولة للوزير السابق سعد الدين بن البقرى، كما قرر موفق الدين أبا الفرج

---

(١) ابن الصيرفى: نفس المصدر والجزء ص١٦١.

(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٤٨٧.

(٣) المقريزى: نفس المصدر والجزء ص٥٦٩، ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٣٨، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٣١٢، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٦١.

(٤) أبو المحاسن: المنهل الصافى (مطبوع) جـ١ ص٥٧، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٦١.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣٣٨.

الوزير السابق في استيفاء الصحبة[١]، وصار هؤلاء الوزراء يباشرون مهام وظيفتهم تحت إشراف الأمير الوزير ابن الحسام[٢]، الذى صار يلقب بوزير الوزراء[٣]، نظرًا لرئاسته للوزراء الذين شغلوا هذا المنصب من قبل، وقد علق أحد المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة على هذا المنصب بهذه الصورة بقوله: «ولم يقع لغيره من الوزراء مثل هذا»[٤] كما علق المقـريزى على ذلك بقوله: «وركبوا ـــ أى الوزراء ـــ فى خدمته وصار ذلك دأبهم دائمًا ولم يسمع بمثل ذلك»[٥] أما بالنسبة لسلطة وزير الوزراء فله التصرف المطلق في أمور وزارته، كما له حق الولاية والعزل للوزراء موظفى الدولة المعاونين له، وينفرد وحده بهذه السلطة دون الرجوع لمشير الدولة في أى أمر من الأمور[٦]، كما رسم له السلطان برقوق «أن البلاد المؤجرة للدولة في أيدى الأمراء تعاد إليه كما كانت في أيام الوزير شمس الدين إبراهيم كاتب أرلان»[٧].

وممن تولى منصب الوزارة على هذه الصورة الأمير الوزير محمد بن رجب بن كَلْبَك وذلك في ربيع الآخر سنة ٧٩٦هـ «فخلع السلطان على جماعة من الوزراء البطالين[٨] بوظائف تحت يده تعظيما له وصار الجميع في خدمته»[٩] فتولى نظر الدولة الوزير السابق سعد الدين نصر الله بن البقرى، كما استقر فى

---

(١) مستوفى الصحبة: وهو يشارك الوزير ويعاونه في الأمور العامة مثل كتابة المراسيم وتسجيلها، سعيد عاشور: العصر المماليكى ص٤٤٨.

(٢) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣١٧، ٣١٨ .

(٣) ابن حبيب: درة الأسلاك فى دولة الأتراك جـ٣ ورقة ١٤٦.

(٤) ابن الصيرفى: نفس المصدر والجزء ص٣١٨.

(٥) المقريزى: السلوك جـ٣ ق٢ ص٤٨٦.

(٦) ابن حبيب: درة الأسلاك جـ٣ ورقة ١٤٦.

(٧) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣١٧.

(٨) البطالون: هم العاطلون من أعمال الدولة ووظائفها وإقطاعاتها، نتيجة غضب السلطان أو كبر السن، أو اضطرارا إلى الاعتكاف والاختفاء، أو لمجرد حب الانزواء والابتعاد (زيادة: السلوك جـ١ ص٧٣ حاشية ٤).

(٩) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص١٥٢.

نظر البيوت الوزير السابق كريم الدين بن الغنّام، وأشرف على استيفاء الدولة الوزير علم الدين سنّ إبْرَة، وأصبح هؤلاء الوزراء يباشرون أعمالهم برئاسة الأمير ناصر الدين ولذا لقب هذا الأمير أيضًا بوزير الوزراء[١]، وكان قد مارس قبل توليته الوزراء وظيفة شاد الدواوين[٢] فاكتسب مرانا كافيا فى إدارة الشئون المالية[٣].

ومن ذلك نرى أن السلطان برقوق اتخذ وزراءه من أرباب الأقلام الذين يدعون وزراء الصحبة، كما اتخذهم أيضًا من أرباب السيوف وهم الأمراء[٤].

وكان الوزير يعين من قبل السلطان مباشرة، كما كان يصدر بتعيينه تقليد سلطانى[٥].

وفى عهد السلطان فرج ضعفت الوزارة عن عهدها السابق وبلغت الغاية من الضعف حين منيت البلاد سنة ٨٠٦هـ/ ١٤٠٣م بقصور فيضان النيل مما أدى إلى الجدب العظيم في موارد الدولة كلها، وانعكس أثر ذلك على نظم الحكم في الدولة، ومن الأمور المقررة أن نظم الحكم كالكائن الحى يتأثر بالعوامل التاريخية والحوادث المحيطة به، فينمو أو ينقص تبعا لها، وقد حدث ذلك لرتبة الوزارة ففسد حالها واضطربت أمورها، فكان الوزراء يتبدلون على منصب الوزارة بسرعة مذهلة، فبعضهم قد يمكث فى الوزارة سنة أو أكثر، ولكن الغالبية منهم في هذه الفترة قد تمكث شهورًا أو أياما، وقد يعود إلى الوزارة من عزل منها ليتولاها مرة ثانية وثالثة، ولذا رأينا المؤرخين المعاصرين لهذه الفترة يسوقون تواريخ تعيين الوزراء وليس بين تعيين وزير وآخر فترة زمنية طويلة، يضاف إلى ذلك أن الكثرة من وزراء هذه الفترة فروا من مناصبهم هاربين حيث عجزوا عن الاستمرار فى

---

(١) أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء ص١٥٢- ١٥٣.

(٢) شاد الدواوين: أى الذى يفتش على الدواوين ويراجع حساباتها، سعيد عاشور: العصر المماليكى ص٤٢٦ - ٤٢٧.

(٣) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٤ ص٦٨١.

(٤) الخالدى: المقصد الرفيع ورقة ١٢٦.

(٥) Demombynes: Op. Cit. P 152.

مناصبهم نتيجة لسوء الحالة الاقتصادية، ومن الأمثلة على ذلك ما ذكره مؤرخ كابن الصيرفى حيث يقول: «وفى يوم السبت ١٥ محرم سنة ٨٠٦ غيب الوزير علم الدين أبو كم وهرب من العجز وقلة الحاصل»[١] كذلك هرب الوزير تاج الدين بن البقرى بعده بشهرين تقريبا، لأنه عجز عن مواجهة النفقات السلطانية[٢]، ثم عين بدلا منه الوزير رزق الله بن نقولا فى ٢٠ ربيع الآخر وهرب في ١٠ جمادى الآخرة حيث لم يتمكن أيضًا من مواجهة المصروفات الموكولة إليه[٣].

وقد يعاد إلى الوزارة من هرب من الوزراء ليتولى الوزارة من جديد، ولكنه سرعان ما يهرب بعد أيام قلائل، فقد أعيد الوزير علم الدين أبو كمّ إلى الوزارة ولكنه هرب بعد ثمانية أيام[٤].

ولم يرتفع شأن الوزارة طوال فترة السلطان فرج بن برقوق إلا إذا أضيفت إلى الأستادار، وفى ذلك يقول المقريزى: «وما رأينا الوزارة من بعد انحطاط رتبتها يرتفع قدر متوليها إلا إذا أضيفت إلى الأستادارية كما وقع للأمير جمال الدين يوسف الأستادار... وأما من ولى الوزارة بمفردها... فإنما هو كاتب يتردد ليلا ونهارًا إلى باب الأستادار ويتصرف بأمره ونهيه»[٥].

اختيار الوزاء:

وكان اختيار الوزراء يتم غالبا من بين القبط، لما عرف عنهم من البراعة في إدارة الشئون المالية: وإن كان قد اشترط عليهم لتولى الوزارة اعتناق الإسلام ولذا اقترن الاسم القبطى للوزير باسم إسلامى مثل الوزير الصاحب سعد الدين نصر الله بن البقرى القبطى الأسلمى[٦]، أو الوزير الصاحب تاج الدين المعروف بابن

---

(١) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ٢ ص١٧٨.
(٢) ابن الصيرفى: نفس المصدر والجزء ص١٨٢.
(٣) ابن الصيرفى: نفس المصدر والجزء ص١٨٤.
(٤) السيوطى: حسن المحاضرة جـ٢ ص٢٢٧.
(٥) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢٢٣.
(٦) المقريزى: السلوك جـ٣ ق٢ ص٨٨٥.

الهيصم القبطى المصرى[١]، وكذلك الوزير الصاحب موفق الدين الأسلمى القبطى المصرى[٢]، أو الوزير الصاحب علم الدين يحيى المعروف بأبى كم الأسلمى القبطى المصرى[٣].

وكان طبيعيا أن توصف الوزارة في هذه الفترة بوزارة الأقباط[٤].

كذلك روعى عند اختيار الوزراء من رجال القلم أن يكونوا قد مارسوا إدارة الشئون المالية بالدواوين الحكومية، وتدرجوا فى وظائفها، فالوزير الصاحب علم بالدين ابن زنبور القبطى الذى ولى الوزارة للسلطان الناصر حسن سنة ٧٥١هـ كان قد تنقل فى الخدم الديوانية قبل أن يلى الرئاسة فكان يلى قبلها استيفاء الوجه القبلى ونظر الخاص ونظر الجيش[٥] (الدرر ٢/ ٣٤٥ نجوم ١٠/ ٢٩٩ خطط ٢/ ٦٠) والوزير الصاحب بدر الدين الطوخى «تنقل فى الخدم الديوانية وباشر فى عدة جهات»[٦] قبل أن يتولى وظيفة الوزارة، وكذلك الوزير الصاحب شمس الدين المعروف بالمقسى القبطى» كان من أعيان الكتاب وولى عدة وظائف إلى أن تولى الوزارة»[٧].

دار الوزارة:

كان يعقد مجلس الوزير بقاعة الصاحب بالقلعة ليكون على مقربة من السلطان ينفذ أوامره أو يستشيره فيها، وليكون أيضًا بجانب الدواوين التابعة للوزارة والتى يشرف عليها الوزير[٨]، ويعقد بهذه القاعة مجلس الوزير سواء كان الوزير من أرباب القلم ممن يطلق عليه اسم الصاحب[٩]، أو كان الوزير من أرباب السيوف[١٠].

---

(١) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٣ ص٦٢٨.
(٢) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٥ ص٦٧٨.
(٣) أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء ص٦٨١.
(٤) ابن خلدون: المقدمة ص٢٤٣.
(٥) المقريزى: الخطط ٢/ ٦٠، ابن حجر الدرر الكامنة ٢/ ٣٤٥، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١٠/ ٢٩٩.
(٦) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٥ ص١٩٣.
(٧) أبو المحاسن: نفس المصدر والجزء ص٦٧٨.
(٨) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣١٧.
(٩) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١١ ص٣١٢، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٦١.
(١٠) المقريزى: السلوك جـ٣ ق٢ ص٧٢٧.

طريقة عزل الوزارة:

لم تشر المصادر إلى طريقة عزل الوزير من منصبه، أيتم ذلك شفاها أم كتابة، واكتفى المؤرخون بالإشارة إلى العزل وكيفية معاملة الوزير المفصول عن الخدمة على اعتبار أن هذا هو المهم، وإذا عزل الوزير عن منصبه فالغالب أنه يسجن ويصادر، وفى كثير من الأحيان يعاقب الوزير ويموت تحت العقوبة، وقلما عزل وزير وأبقى على حياته وماله.

فمن هؤلاء الذين ماتوا نتيجة التعذيب الوزير الصاحب أبو الفرج عبد الوهاب موفق الدين الأسلمى القبطى المصرى فقد كان أسوأ الوزراء سيرة فأوقع كثيرا من المظالم على الجماهير وسلك فى جمع المال طرقا غير مشروعة[١] كذلك مات الوزير الصاحب سعد الدين نصر الله بن البقرى القبطي الأسلمى، مات مخنوقا بعد أن عوقب معاقبة شديدة[٢].

ونجاة الوزير من العقوبة بعد عزله أمر يثير دهشة المؤرخين الذين عاصروا هذه الأحداث، فإذا مات أحد الوزراء المفصولين ميتة طبيعية عد ذلك من الأمور النادرة، ولذا نراهم يشيرون إلى مثل هذه الأمور بقولهم: «ومات الأمير الوزير ناصر الدين محمد بن رجب، سالما من نكبات الزمان وتغير السلطان، وهذا نادر الوقوع»[٣].

كما يشير المقريزى إلى وفاة هذا الوزير بقوله: «وهو ممن مات بغير نكبة من وزراء مصر»[٤].

---

(١) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٥ ص٦٧٨.
(٢) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثانى ص٨٨٥.
(٣) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٤٣٥.
(٤) المقريزى: نفس المصدر والجزء ص٨٦٥.

ومن هؤلاء الوزراء الذين عاشوا بعد عزلهم من الوزارة الوزير مبارك شاه بن عبد الله الظاهرى فقد «عزله ـــ السلطان برقوق ـــ من غير نكبة ولزم داره حتى توفى»[١].

٤- والى القاهرة:

ويعهد إليه بالإشراف على العاصمة، ويساعده في أداء مهامه فريق من المعاونين الذين يقومون بتبليغه «عن مجددات ولايته من قتل أو حريق أو نحو ذلك، ثم تكون مطالعة جامعة بذلك تحمل إلى السلطان صبيحة كل يوم فيقف عليها»[٢].

وكان هذا الموظف يتولى تنفيذ الأحكام، وإقامة الحدود، وتعقب المفسدين، ومثيرى الفتن، ومدمنى الخمر، ويتولى معاقبة كل منهم على حسب جريمته، فضلا عن مراقبة أبواب العاصمة، والطواف في أحياء التجارة والمال[٣].

ومما رواه ابن الصيرفى عن أعمال الأمير الحسين بن الكُوَرانىّ والى القاهرة في عهد السلطان برقوق نتبين مدى ما تمتع به ذلك الموظف من شدة وحزم في مطاردته للمجرمين، ذلك أن نحوا من ستين رجلا من اللصوص تدلوا من سور القاهرة في أواخر صفر سنة ٧٨٨هـ/ ١٣٨٦م، وسرقوا سوق الجملون بوسط القاهرة، فبلغ ذلك ابن الكورانى «فبادر وركب ولحق بهم، فمسك منهم ثلاثة أنفار بضواحى القاهرة، فوجد معهم ما أخذوه، فأثخنهم عقوبة حتى دلوه على بقيتهم»[٤] وحين ظفر ببقيتهم هذا الوالى سمرهم على الجمال وطاف بهم شوارع القاهرة، ثم قتلهم[٥].

---

(١) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٤ ص٥١٤.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٦٠.

(٣) على إبراهيم حسن: تاريخ المماليك ص٢٣٠.

(٤) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٢٩.

(٥) ابن حجر: إنباء الغمر جـ١ ص٣١٧.

كذلك كان يجلس والى القاهرة بعد صلاة العشاء كل ليلة بمركز إطفاء الحريق تجاه سوق الجملون الكبير بالغورية، وينصب أمامه مشعل يشعل بالنار طرل الليل، وحوله بعض أعوانه، وكثير من النجارين والسقائين خشية حدوث الحريق بالليل فيبادرون إلى إطفائه[١].

ونظرا لأهمية وظيفة الوالى وخطورة مسئولياته، فإنه كان لا يستطيع «النوم خارج المدينة إلا بمرسوم خوفا من حريق أو منسر أو كسر حاصل أو فتح وغير ذلك»[٢].

وقد ساعد والى القاهرة ولاة آخرون أهمهم والى الفسطاط، ويشرف على مصر (الفسطاط والعسكر والقطائع) وهو برتبة أمير عشيرة[٣]، ووالى القرافة، ووظيفته الإشراف على الأمن في جهات القرافة، ويعين هذا الوالى أيضًا من بين أمراء العشرات[٤].

وكانت ولاية القرافة مضافة لوالى مصر ثم صارت ولاية مستقلة فى أوائل حكم السلطان برقوق سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م[٥].

وفى أواخر حكم السلطان برقوق أضيفت ولاية القرافة إلى والى مصر مرة أخرى سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٩م[٦]، وصارت ولاية واحدة وأشرف عليها أمير برتبة طبلخاناه[٧].

وأخيرا والى القلعة أو نائبها، ويختار من أمراء الطبلخانات، وكان يعهد إليه الإشراف على فتح أبواب القلعة فى الصباح وإغلاقها فى المساء[٨]، كما كان

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص١٠٣.
(٢) الخالدى: المقصد الرفيع ورقة ١٢٨.
(٣) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٢٣.
(٤) القلقشندى: نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٥) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٠٦.
(٦) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٥١٨.
(٧) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٢٣.
(٨) القلقشندى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

يشرف على أعمال حراسة الأبراج بالقلعة ومراقبة المعتقلين بها، وملاحظة أسوارها ومنافذها، وإليه ترفع المحاكمات في القلعة من عامته[١].

ويلاحظ أن نائب القلعة صار في عهد السلطان برقوق من أمراء المئين، وهى أعلى مراتب الأمراء في عصر المماليك[٢]، ومهمة ملاحظة أخيرة على نيابة القلعة، وهى أن نائبها غدا في معظم الأحيان مستقلا عن نائب السلطنة، كما صار من واجبه مراقبة نائب السلطنة بل ومقاومته إذا حدثته نفسه بالخروج على السلطان[٣]، وفوق ذلك فهو الذى يدير أعمال القلعة عند خروج السلطان للحرب أو الصيد وغير ذلك، ولعل أقرب مثال لذلك ما أشار إليه ابن إياس من أن السلطان برقوق حين خرج إلى الشام لمحاربة الثوار بها سنة ٧٩٣هـ/ ١٣٩١م، جعل كمشبغا الحموى نائب الغيبة بمصر إلى أن يعود، كما أمر نائب القلعة «بأن يقيم بالإيوان الذى بالقلعة وترك عنده من المماليك خمسمائة مملوك»[٤] لحراسة القلعة والدفاع عنها إذا ما دعت الظروف.

ثانيًا: الإدارة الإقليمية:

تمثلت هذه الإدارة في عدد من نواب السلطنة مقرهم بالمدن الكبرى بالوجهين البحرى والقبلى، ويعاونهم مجموعة من الولاة الموزعين على بقية الأقاليم، وهذه النيابات هي:

١- نيابة الإسكندرية:

استُحدثت هذه النيابة في أواخر عهد دولة المماليك البحرية على عهد السلطان الأشرف شعبان بن حسين سنة ٧٦٧هـ/ ١٣٦٥م وعين لها نائب من كبار أمراء المئين، وكانت قبل ذلك ولاية يعين لها وال من أمراء الطلبخاناه[٥].

---

(١) الخالدى: المقصد الرفيع ورقة ٧٠.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص٢٧، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٩٤.

(٣) Demombynes: Op. Cit. CVIII.
Van Berchem: Op. Cit. pp. 210 – 211.

(٤) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٤٤٦.

(٥) الخالدى: المقصد الرفيع ورقة ١٢٧.
Van Berchem: Op. Cit. P. 214

على أن تحويل الإسكندرية من ولاية إلى نيابة، إنما يرجع إلى ما حدث في هذه السنة من قيام ملك قبرس بحملته الكبيرة على الإسكندرية[١]، وفوق ذلك فقد كانت مدينة الإسكندرية من أهم ثغور مصر التجارية على البحر الأبيض.

٢- نيابة الوجه البحرى:

وهى وظيفة استحدثها السلطان برقوق، ومقر نيابتها دمنهور مدينة البحيرة[٢]، ويرجع السبب فى إنشاء هذه الوظيفة إلى كثرة ثورات العربان في البحيرة[٣].

وقد جعل برقوق لنائبها أهمية كبيرة، وأقرب مثل لذلك أن الأمير قرط بن عمر التركمانى حين عين نائبا للبحيرة والوجه البحرى سنة ٧٨٢هـ/ ١٣٨٠م، صحبه إلى مقر عمله عدد حربية وأسلحة كثيرة ومال جزيل، فسار في عسكر كثير»[٤].

ولا ريب في أن ذلك يفسر بما ذكره القلقشندى من أن نيابة دمنهور «ليست على قاعدة النيابات، بل هى في الحقيقة ولاية حرب كبيرة»[٥].

وعلى الرغم من كل هذه الإجراءات فقد ظل العربان طوال عصر المماليك مصدرًا من مصادر القلاقل وعدم الاستقرار، وفوق ذلك اعتاد العربان أن ينتهزوا فرصة غياب السلطان خارج الدولة فيعملون على الإخلال بالأمن والإضرار بالنظام والاعتداء على الأهالى بالقتل والنهب، الأمر الذى جعل نائب السلطنة فى

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٢٤، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الثانى ص٢٤.

Demombynes: Op. Cit. P. LXIV.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٢٥، الخالدى: المقصد الرفيع ورقة ١٢٧.

(٣) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الأول ص٣٠٤، ٣١٩، ٣٤٤، ٣٩١.

(٤) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الأول ص٤٠١ - ٤٠٢.

(٥) القلقشندى: نفس المصدر والجزء والصفحة.

القاهرة يرسل بقوات إضافية في مثل هذه الظروف تقوية للجهاز الإدارى بالوجه البحرى[١].

أما الإدارة ببقية المدن بالوجه البحرى فأشرف عليها مجموعة من الولاة بعضهم برتبة أمير طبلخاناه (أمير أربعين) والبعض الآخر برتبة أمير عشرة.

فمن الأعمال التى أشرف عليها ولاة في وظيفة أمير طبلخاناه: الشرقية والمنوفية والغربية[٢]، وكانت بلبيس مقرا لوالى الشرقية، كما جعلت منوف مقرا لوالى المنوفية، أما والى الغربية فكان مقره المحلة الكبرى[٣].

ومن الأعمال التى حكم كلا منها وال في رتبة أمير عشرة: القليوبية والدقهلية ودمياط وقطيا، وكانت قليوب مقرا لوالى القليوبية، وأشموم مقرا لوالى الدقهلية، كما جعلت دمياط مقرا لوالى دمياط، أما والى قطيا فكان مقره بلده قطيا نفسها[٤]، والتى كانت تقع على الحدود بالقرب من شبه جزيرة سيناء.

وترتب على تحويل عمل البحيرة إلى نيابة أن صار للوجه البحرى كاشف من أمراء الطبلخاناه يحكم سائر بلاد الوجه البحرى فيما عدا البحيرة، ومقره ميت غمر، وإن كان في الحقيقة يرجع في كل أموره إلى نائب الوجه البحرى[٥].

وثمة ملاحظة أخيرة على الولاية بهذه الأقاليم، وهى أن هذه المناصب كان لا يشغلها غير العسكريين، وذلك فيما عدا ولاية قطيا التى شغلت على عهد برقوق بغير العسكرين، وممن شغل هذه الوظيفة من المدنيين عبد الرزاق بن أبى الفرج الملكى الذى عين واليا لقطيا مضافا إلى نظرها فى عصر السلطان برقوق فى ١٥ صفر سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٦م[٦].

---

(١) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣٣٣.
(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٢٦ - ٢٧.
(٣) القلقشندى: نفس المصدر جـ٣ ص٤٠٠، ٤٠٥، ٤٠٦.
(٤) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٢٧ - ٢٨.
(٥) القلقشندى: نفس المصدر والجزء ص٢٥، ٦٥.
(٦) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٤٢٥.

وربما كان من أهم أسباب ترشيح المدنيين لولاية قَطْيا يرجع إلى أهميتها من حيث أنه لا يمكن لأحد الجواز بين مصر والشام إلا منها، فضلا عن أنها مكان أخذ المكس من القادمين إلى مصر، ومن ثم اختار لها السلطان برقوق ولاة من الأقباط الذين مارسوا الخدمة فى الدواوين المالية بحيث أصبحت لهم دُرْبَة كافية في إدارة القضايا المالية، وعلى هذا استقبلت بعض هذه الجهات ولاة جددا، كما استقبلت تطورا في نظم الإدارة.

وفضلا عن هذا فإن بعض أشغال العمارة التى تخدم الجهاز الإدارى بهذه المناطق، كانت تقام وقتذاك في دمنهور والإسكندرية[١].

٣- نيابة الوجه القبلى:

وهى أيضًا مما استحدثه السلطان برقوق، ويكاد يكون نائبها فى رتبة نائب الوجه البحرى، بل لعله أعظم شأنا منه وقد جعل مقر النائب بها مدينة أسيوط، على أن يكون حكمه على جميع بلاد الوجه القبلى بأسرها[٢]، ولم تكن لهذه الوظيفة قبل عهد برقوق هذه الأهمية بسبب هدوء الصعيد، ولذا تولاها قبل ذلك موظف كبير عرف باسم «الكاشف» وأطلق عليه «والى الولاة»[٣].

ولذلك يرجع السبب في إنشاء هذه الوظيفة إلى كثرة ثورات العربان بالصعيد، بالإضافة إلى الأخطار التى هددت البلاد من الجنوب، وبالرغم من اهتمام برقوق بأمر هذه البلاد فقد ظلت مصدرًا من مصادر الإخلال بالأمن في كثير من الأحيان.

وكثيرا ما دخل رجال الإدارة مع عربان هذه المناطق في اشتباكات عنيفة، قتل فيها كثير من العربان كما قتل فيها عدد غير قليل من الولاة والكشاف[٤].

---

(١) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الأول ص٤١٠، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص١٣.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٢٤، الخالدى: المقصد الرفيع ورقة ١٢٧.

(٣) Demombynes: Op. Cit. P LXIV.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص١٣٨، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٤٢٩.

وكانت مدينة أسوان قبل عهد برقوق مضافة إلى والى قوص، وحين ازدادت الأخطار الخارجية التى تتهددها من جانب النوبة والحبشة، استحدث برقوق وظيفة والى أسوان[١].

وبالرغم من ذلك فكثيرا ما هاجم الكنوز[٢] أسوان، وقد أفاض المؤرخون فى وصف عبثهم بالبلاد وتعديهم على الأهالى، فمن ذلك ما ذكره ابن الصيرفى فى حوادث سنة ٧٨٧هـ - ١٣٨٥م من «أن الكنوز هجموا أسوان وقتلوا معظم من بها ونهبوا المسلمين، فهرب الوالى منهم»[٣].

ولم تقف الحكومة المركزية مكتوفة الأيدى أمام عدوان العربان، وإنما خرجت الجيوش إلى الصعيد للضرب على أيديهم، كما بعثت السلطنة بكبار موظفيها الإداريين للقضاء على هذه الاضطرابات، وليس أدل على ذلك مما أشار إليه أبو المحاسن في حوادث سنة ٧٩٦هـ/ ١٣٩٤م، من أن قُطْلُوبُغَا بن عبد الله كاشف الوجه القبلى والمعروف بأبى دَرَقة «وقع له أمور مع العربان وقتل منهم جماعة كبيرة حتى مهد البلاد القبلية»[٤].

وما لبث أولاد الكَنْـز أن عاودوا الهجوم على أسوان مرات عديدة «فكانت لهم من ولاة أسوان عدة حروب إلى أن كانت المحن منذ سنة ٨٠٦هـ، وخرب إقليم الصعيد، فارتفعت يد السلطنة عن ثغر أسوان، ولم يبق للسلطان في مدينة أسوان وال[٥].

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٢٦، ٦٦.

(٢) هم عرب يسكنون بعض أقاليم السودان وصعيد مصر، المقريزى: البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ص٤٤.

(٣) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص١٩١.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص١٣٨.

(٥) المقريزى: الموعظ والاعتبار جـ١ ص١٩٨ - ١٩٩.

ومهما يكن من أمر فقد أشرف على بقية مدن الوجه القبلى مجموعة من الولاة بعضهم كان يعين من بين أمراء الطبلخاناه، والبعض الآخر كان يعين من بين أمراء العشرات.

فمن الأعمال التى أشرف عليها ولاة فى رتبة أمير أربعين، البهنسى والأشمونين (المنيا) وقوص وأسوان، وكانت البهنسى مقرا لوالى البهنساوية، والأشمونين مقرا لوالى الأشمونين، وقوص مقرا لوالى القوصية، كما جعلت أسوان مقرا لوالى أسوان[١].

ومن الأعمال التى حكم كلا منها والٍ فى وظيفة أمير عشرة: الجيزية والإطفيحية والمنفلوطية، وكانت الجيزة مقرا لوالى الجيزة، وإطفيح مقرا لوالى الإطفيحيّة، ومنفلوط مقرا لوالى المنفلوطية[٢].

ثالثًا: دواوين الحكومة:

وكان لا بد من أن يعتمد هذا الجهاز الإدارى الضخم على عدد من الدواوين الحكومية حتى ينتظم سير العمل في شتى المجالات وتلك الدواوين هى:

١ – ديوان الإنشاء: ومهمته تلقى المكاتبات الرسمية الخاصة بالدولة، وهى ما يرد إلى السلطان من ملوك ورؤساء الدول المختلفة التى تربطها بمصر علاقات سياسية، كما أنه يقوم بإعداد المكاتبات والرسائل الرسمية وتبليغها للنواب والولاة فى الداخل[٣].

---

(١) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٣ ص٣٩٣ – ٣٩٨، جـ٤ ص٢٦.

(٢) القلقشندى: نفس المصدر جـ٣ ص٣٩٢ – ٣٩٥، جـ٤ ص٢٧، ابن الجيعان: التحفة السنية ص٤.

(٣) القلقشندى: نفس المصدر جـ١ ص١٠٢.

Demombynes: Op. Cit. P LXIX.

وقد وجه السلطان برقوق عنايته إلى ديوان الإنشاء لكثرة المخالفات والمعاهدات التى عقدها مع الملوك والرؤساء المعاصرين له، وما ترتب على ذلك من تبادل المكاتبات بينه وبينهم[١].

وتلقب صاحب ديوان الإنشاء بكاتب السر[٢]، وهى التسمية التى أطلقت لأول مرة سنة ٦٧٨هـ في عهد قلاوون على القاضى فتح الدين محمد بن عبد الظاهر، وصار بذلك أول كاتب سر فى الدولة المملوكية وغيرها، وإنما كانت هذه الوظيفة من اختصاصات الوزارة، فكان الوزير هو المتصرف في هذا الديوان وتحت يده طائفة من الكتاب تعاونه[٣].

على أن وظيفة كاتب السر في دولة السلطان برقوق غدت من أهم الوظائف الديوانية وأجلها قدرا، وليس أدل على صحة هذا القول ما ذكره القلقشندى وهو من المعاصرين لهذه الدولة وممن التحقوا بهذا الديوان، حيث يقول: «ومرتبته في زماننا أرفع مرتبة ومحله أعظم محل، إليه تلقى أسرار المملكة وخفاياها، وبرأيه يستضاء في مشكلاتها، وعلى تدبيره يعول في مهماتها، وإليه ترد المكاتبات وعنه تصدر، ومن ديوانه تكتب الولايات السلطانية كافة، ويقوم توقيعه على القصص فى نفوذ الأوامر مقام توقيع السلطان»[٤].

وبذلك غدا صاحب هذه الوظيفة بمثابة وزير[٥].

وكان يتولى هذا الديوان فى ذلك العهد جماعة من أفاضل الكتاب المصريين ما بين مسلم وذمى، فمثلا كتب إبراهيم بن غراب ـــ وهو من النصارى الذين أسلموا ـــ للسلطان فرج بن برقوق[٦].

---

(١) تناولت هذه المكاتبات بشيء من التفصيل عند الحديث عن العلاقات الخارجية.

(٢) القلقشندى صبح الأعشى جـ٥ ص٤٦٤.

(٣) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ٧ ص٢٩٣، ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الأول ص٣٤٨ - ٣٤٩.

(٤) القلقشندى: صبح الأعشى جـ١ ص١٠٢.

(٥) Wiet Op. Cit P. 399.

(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٣ ص١٥٦.

ولمة جماعة من غير أهل مصر تولوا رئاسة هذا الديوان، فقد عهد السلطان برقوق بالديوان إلى القاضى بدر الدين محمود بن عبد الله الكُلُسْتانى[١]، وربما كان من أهم أسباب ترشيحه لوظيفة كاتب السر أنه كان يجيد الفارسية والتركية بجانب العربية[٢]، في وقت غدت فيه إدارة هذا الديوان في حاجة ماسة إلى من يجيد هذه اللغات، بعدما تزايدت المكاتبات الواردة على السلطان برقوق من إيلخانات المغول في فارس[٣]، وخانات مغول القَفْجاق[٤]، بسبب تهديدات تيمور لنك لبلدان هذه المناطق.

ومما يقوى هذا الرأى ما حكاه أبو المحاسن من أن السلطان برقوق حين خرج إلى الشام سنة ٧٩٦ لأجل محاربة تيمور لنك، ورد عليه كتاب من تيمور لنك بعبارة تركية، فطلب السلطان من يقرأه ويكتب جوابه، وذلك لعجز القاضى بدر الدين بن فضل الله عن معرفة اللغة التركية، فأحضروا له بدر الدين محمود الكلستانى فقرأ الكتاب ثم كتب جوابه، فأعجب السلطان برقوق ذلك، وأثنى عليه، ثم طلب الكلستانى أن يتوجه مع السلطان إلى الشام لخدمته فرسم له بذلك[٥].

ولما كان من العسير على كاتب السر أن يقوم بأعباء هذا الديوان وحده، كان لمة أعوان لمساعدته، أولهم «نائب كاتب السر» الذى يقوم بالرد على المكاتبات الواردة إلى الديوان في حالة تغيب كاتب السر أو تخلفه لحضور مجالس السلطان[٦]، وممن شغل هذه الوظيفة في عهد السلطان برقوق، أبو البقاء حمزة بن

---

(١) أشار أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٣ ص١١ إلى أنه سمى بالكلستانى لكثرة قراءته كتاب الشاعر العجمى السعدى المسمى كلستان.

(٢) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ٢ ص٢١.

(٣) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٥ ص٣٥٤.

(٤) ابن حجر: أنباء الغمر جـ١ ص٣٠١، ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣٨٧ .

(٥) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ٥ ص٣٥٤.

(٦) الخالدى: المقصد الرفيع ورقة ١٣٤.

على بن يحيى بن فضل الله العمرى فكان نائب أخيه القاضى بدر الدين محمد بن فضل الله كاتب السر[١].

ومن أشهر من تولوا هذه الوظيفة في عهد السلطان فرج بن برقوق، القاضى زين الدين طاهر بن حبيب «وكان فاضلا في صناعة الإنشاء، له نظم إلى الغاية»[٢].

أما بقية أعمال الديوان فقد توزعت على «كتاب الدَّسْت»[٣] فكان منهم من يقوم بصياغة المكاتبات الموجهة إلى ملوك المسلمين وأمرائهم، ومنهم من يقوم بصياغة الرسائل الموجهة إلى ملوك الفرنجة، أو ترجمة الرسائل الموجهة من هؤلاء الملوك إلى السلطان[٤]، ولهذا السبب أشار القلقشندى إلى أهمية إلمام الكاتب بديوان الإنشاء بكثير من اللغات الأجنبية حتى يمكن فهم المكاتبات الواردة من الخارج والإجابة عنها من غير اطلاع ترجمان عليها، وذلك حفاظا على أسرار الدولة وسلامتها[٥].

ولم يغفل السلطان برقوق وابنه العناية بهذه الناحية، ولعل أقرب مثل يوضح ذلك ما ساقه القلقشندى من أن كتاب دوج البندقية نقولا، الذى ورد إلى السلطان فرج بن برقوق سنة ٨١٤هـ باللسان الفرنجى، قام بنقله إلى العربية اثنان من التراجمة بديوان الإنشاء وقتذاك، هما شمس الدين سُنْقُر وسيف الدين سُودُون[٦]، وفوق ذلك فقد تزايد عدد كتاب الدست فى سلطنة الظاهر برقوق وابنه الناصر فرج حتى جاوزوا العشرين بعد أن كان عددهم قبيل سلطنة برقوق عشرة أو نحوها[٧].

---

(١) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣٥٣.
(٢) ابن الصيرفى: المصدر السابق جـ٢ ص٢٢٢ .
(٣) سموا بذلك إضافة إلى دست السلطان، وهو مرتبة جلوسه، لجلوسهم للكتابة بين يديه، القلقشندى: صبح الأعشى جـ١ ص١٣٧.
(٤) سعيد عاشور: العصر المماليكى ص٣٦٢.
(٥) القلقشندى: صبح الأعشى جـ١ ص١٦٥.
(٦) القلقشندى: المصدر السابق جـ٨ ص١٢٣.
(٧) القلقشندى: نفس المصدر جـ١ ص١٣٧.

وربما كان من أهم الأسباب التى أدت إلى تزايد عدد كُتّاب الدَّسْت في عصر السلطان برقوق هى كثرة المكاتبات الواردة على الأبواب السلطانية من أكابر رجال الدولة وأهل المملكة، وهى كثرة تفوق الحصر، ثم هذه المكاتبات الواردة من أهل الشرق من القانات العظام والملوك والحكام، والكتب الواردة من المغرب من ملوك بنى حفص وبنى مرين وبنى زيان وغير ذلك كثير، ويكفى أن المكاتبات الصادرة من ملوك أهل الشرق وحدهم من القانات العظام وغيرهم إلى السلطان برقوق، بلغت في أخريات سنة ٧٩٥هـ، ست مكاتبات حملتها البعثات السياسية الموفدة من قبل ملوكها إلى الأبواب السلطانية بمصر[١].

البريـــــد:

وتمتعت إدارة البريد بقسط كبير من الأهمية في عصر السلطانِ برقوق، وكانت تتبع ديوان الإنشاء، وأسند إلى هذه الإدارة في تلك الفترة أمور عديدة، كنقل المكاتبات الإدارية والدبلوماسية والأوامر الحربية، وإرسال الأمراء إلى المنفى أو إلى السجن، وكذلك سائر الأمور التى تجرى بمصر والنيابات الشامية من الفتن والثورات وأخبار السرقة وجرائم القتل ونحو ذلك.

ومن المعروف أن البريد البرى كان قد نظم تنظيمًا دقيقًا في سنة ٦٦٩هـ على عهد السلطان بَيْبَرس البُنْدُقْدَارِى، فزودت مراكز البريد بكل ما يحتاج إليه المسافر من زاد وعلف وغير ذلك، وذلك كله ضمانا لسرعة مجيء أخبار البلاد الشامية إلى مقر السلطان بقلعة الجبل[٢].

واستمر هذا الأمر باقيا إلى عهد السلطان برقوق الذى قام بدوره بتوجيه عنايته إلى هذه المراكز وأنفق في سبيل ترتيبها أموالا ضخمة[٣]، فصارت طريق البريد فى عهده كما وصفها المقريزى: «عامرة يوجد بها عند كل بريد ما يحتاج

---

(١) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣٦٠، ٣٦٢، ٣٦٥.
(٢) ابن إياس: بدائع الزهور جـ١ القسم الأول ص٣٣١ - ٣٣٢.
(٣) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٤٠٥ - ٤٠٦.

إليه المسافر من زاد وعلف وغيره ولكثرة ما كان فيه من الأمن أدركنا المرأة تسافر من القاهرة إلى الشام بمفردها ـــ راكبة أو ماشية ـــ لا تحمل زادا ولا ماء»[١].

ولكن على ما يبدو أهمل هذا المرفق في الشام في أوائل عهد السلطان فرج بن برقوق بسبب غزو تيمور لنك للبلاد الشامية عام ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، فقضى على نظام البريد واشتغلت حكومة فرج بن برقوق بما نزل بالبلاد من المحن، وما دهيت به مصر من كثرة الفتن «عن إقامة البريد فاختل بانقطاعه طريق الشام خللاً فاحشًا»[٢].

ولم يقتصر السلطان برقوق على البريد العادى في ربط مختلفِ أطراف البلاد بعضها ببعض، بل استخدم الحمام الزاجل، فكانت ترد إلى قلعة الجبل في عهد السلطان برقوق الرسائل والتقارير من الحكام والنواب بمصر والبلاد الشامية عن طريق شبكة من البريد الجوى[٣]، غير أن هذا النظام أصيب بالإهمال كذلك على عهد السلطان فرج بن برقوق، و «بطل الحمام من سائر المملكة إلا ما ينقل من قطيا إلى بلبيس ومن بلبيس إلى قلعة الجبل»[٤].

ويعزى السبب في هذا أيضًا إلى غزو تيمور للشام سنة ٨٠٣هـ/ ١٤٠٠م، ومن ثم استخدم راكبو الإبل السريعة والسعاة من جديد في نقل البريد الرسمى[٥].

٢- ديوان الأحباس:

أما ديوان الأحباس (الأوقاف) فهو ديوان فاطمى الأصل، وقد أبقاه الأيوبيون من بعدهم، وجعلوا النظر فيه من اختصاص القاضى، فلما قامت الدولة المملوكية

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ١ ص٢٢٧.
(٢) المقريزى: نفس المصدر والجزء والصفحة.
(٣) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٦٣، ٣٠٩.
(٤) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢٣٢.
(٥) دائرة المعارف الإسلامية المجلد السابع ص١٨٣.

الأولى قسمت ديوان الأحباس إلى ثلاث إدارات رئيسية، ثم لما كانت دولة الظاهر برقوق وأسرته أبقوا هذا الديوان على هيئته فيما أبقوه من دواوين[١].

وأولى هذه الإدارات كانت تعرف بالأحباس، وهى الخاصة بالمساجد والزوايا، وكان الإشراف الإدارى في هذا القسم من اختصاص الدوادار الكبير، وهو من كبار الموظفين بالقصر المماليكى[٢].

والثانية تعرف بالأوقاف الحكمية، ويقصد بها الأوقاف المحبوسة على الحرمين وعلى الصدقات وافتداء أسرى المسلمين، ويشرف على إدارتها ناظر الأوقاف، وهو غالبا قاضى قضاة الشافعية، الذى كان ينيب عنه واحدًا للإشراف على شئون الأوقاف بمصر والقاهرة، وقد يجعل واحدًا للإشراف على شئون الأوقاف بالقاهرة، وآخر للإشراف على شئون الأوقاف بمصر، ويدير كلا من أوقاف القاهرة ومصر ديوان يعمل فيه عدد من الكتاب والجباة[٣].

أما الإدارة الثالثة فهى الأوقاف الأهلية، ولها ناظر خاص لإدارة شئونها قد يكون من أولاد الواقف، وقد يوليه السلطان أو القاضى[٤].

ومن أشهر الدوادارية الذى تولوا منصب نظر الأحباس في عهد السلطان فرج ابن برقوق، الأمير يَشْبك العشباني، وقد تولى هذا المنصب مرتين، الأولى في شوال سنة ٨٠٢هـ[٥]، والثانية فى ذى الحجة سنة ٨٠٤هـ[٦].

ومن أشهر قضاة هذا الديوان في عهد السلطان برقوق القاضى الفاضل تاج الدين محمد بن محمد المليجى الذى عرف بالخير والصلاح والعفة الزائدة[٧].

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢٩٥.

(٢) القلقشندى: صبح الأعشى جـ٤ ص٣٨، المقريزى: المواعظ والاعتبار: جـ٢ ص٢٩٥.

(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢٩٥ – ٢٩٦، الخالدى: المقصد الرفيع ورقة ١٣٢.

(٤) المقريزى: نفس المصدر والجزء ص٢٩٦.

(٥) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ٢ ص٥٩.

(٦) المقريزى: السلوك جـ٣ القسم الثالث ص١٠٨٨.

(٧) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٣٩٥.

ومن تولى هذا المنصب من القضاة في عهد السلطان فرج بن برقوق، قاضي القضاة كمال الدين أبو حفص عمر بن إبراهيم، المعروف بابن العديم، وكان عالمًا فاضلا وقورا[١].

٣- ديوان النظر:

أما ديوان النظر فكان يختص بمراقبة حسابات الدولة، وإليه كانت ترجع سائر الدواوين المالية في كل ما يتعلق بالمتحصل والمنصرف من أموال الدولة، وفوق ذلك كان هذا الديوان يتولى صرف مرتبات الموظفين سواء منها ما كان يصرف نقدا، أو يصرف عينا من غلات ولحوم وتوابل وخبز وسكر وزيت ونحو ذلك[٢].

وأشرف على هذا الديوان موظف كبير عرف باسم ناظرَ المال أو ناظر الدولة، وقد وصفه المقريزى بأنه حين كان يصعد إلى بيت المال بالقلعة «فيكون له هناك أمر ونهى وحال جليلة، لكثرة الحمول الواردة وخروج الأموال المصروفة فى الرواتب لأهل الدولة، وكانت أمرًا عظيمًا»[٣].

كذلك أشار أبو المحاسن إلى أن هذا المنصب كان في عهد برقوق وابنه من أجلّ المناصب في الدولة[٤]، وكثيرا ما كان يرقى الوزراء من أرباب القلم في هذه الفترة من بين من يشغلون وظيفة نظر الدولة[٥]. ومن أشهر من تولوا وظيفة نظر الدولة في عهد السلطان برقوق الوزير السابق سعد الدين نصر الله بن البقرى، وكان برقوق قد قلده هذه الوظيفة فى سنة ٧٩٦هـ بعد أن أنهى خدمته كوزير[٦].

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٣ ص١٧١.
(٢) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص ٢٢٤.
(٣) المقريزى: المواعظ والاعتبار جـ٢ ص٢٢٤.
(٤) أبو المحاسن: المنهل الصافى جـ١ ص٢٨١.
(٥) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ٢ ص١٠٠.
(٦) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة جـ١٢ ص١٥٢.

ويعاون ناظر الدولة مجموعة من الموظفين أهمهم مستوفى الصحبة وهو بمثابة وكيل ديوان النظر، وشهود بيت المال وصيارفته[١].

٤- ديوان الخاص:

وهو الديوان الذى أحدثه الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م وكانت مهمة هذا الديوان الإشراف على شئون السلطان المالية، وتولى الإشراف على هذا الديوان موظف كبير أطلق عليه اسم «ناظر الخاص»[٢].

وقد ظل الديوان يباشر عمله على هذه الصورة طوال أيام السلطان برقوق وابنه السلطان فرج.

وممن رأس هذا الديوان في عهد السلطان برقوق، موفق الدين أبو الفرج عبد الله، وهو من النصارى الذين أسلموا[٣].

وربما جمع بين نظر الخاص وعدة وظائف أخرى لشخص واحد كما حدث للقاضى شرف الدين بن الدماميني ناظر الخاص في عهد السلطان فرج بن برقوق، حيث أسند إليه السلطان فرج بجانب ذلك نظارة الجيش ووكالة بيت المال[٤].

---

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكى ص٣٦٥.
(٢) سعيد عاشور: مصر فى عصر دولة المماليك البحرية ص١٥١.
(٣) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ١ ص٧٨.
(٤) ابن الصيرفى: نزهة النفوس جـ٢ ص٤٣.